مجلة جامعة دمشق للدراسات التاريخية
المجلد 150 (1): 159-170

Damascus university journal of Historical Studies
V 150 (1):159-170

تأثير الدين على الطب في مصر القديمة (3200 – 1085ق.م)

محمد أمين محمود حجازي، لينا علي محسن

طالب دكتوراه، قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة دمشق.
دكتوره، قسم الآثار، كلية الآداب، جامعة دمشق.

الملخص

ارتبطت العلوم المصـــرية القديمة بالدين ارتباطاً وثيقاً جعلها لا تخرج عن دائرتها، وأصـبحت منذ نشـأتها جزء من التعاليم الدينية، مع أنها تطورت ولكن ليس بالتسـارع الذي تعيشـــه هذه المهنة فيما إذا كانت متحررة من القيود، فكان الأثر الديني على الطب عميق مما أدى إلى ارتباطه بالتعاويذ الدينية، وهذا ما بينته هذا البحث في دراســـته لفئات الأطباء وكيفية تأهيلهم وعلاقتهم بالسلطة والمعبد والجيش، كذلك كيفية الاستطباب وأهم البرديات التي وصـلتنا وما علاقة التحنيط بالأطباء، مُلخصـةً الواقع الطبي في مصـر القديمة وأسسـه الدينية والعلمية وكيفية تعامل السلطة الحاكمة معهم وما مدى استفادة الفقراء من علمهم، وصـولًا إلى تبيان أهمية السـحر والشـعوذة في مقابل الطب وإفقاده لعوامل علمية ضرورية وإعطائه صبغة روحية ومساعدة نفسية قربت الناس من المعبد أكثر.

الكلمات المفتاحية: الأطباء المصريون القدماء، علم الطب المصري، الكهنة الأطباء، الأطباء السحرة.

تاريخ الايداع: **2024/10/31**
تاريخ النشر: **2025/5/27**

حقوق النشر: جامعة دمشق –سورية، يحتفظ المؤلفون بحقوق النشر بموجب **CC BY-NC-SA**

ISSN (online)
http://journal.damascusuniversity.edu.sy/index.php/index/index

The influence of religion on medicine in ancient Egypt (1085 – 3200 BC)

Muhammad Amin Hegazy[1], Lina Ali Mohsen

[1]PhD candidate, Department of History, Faculty of Arts, Damascus University.

[2]PhD, Department of Archaeology, Faculty of Arts, Damascus University.

Received: **31/10/2024**
Accepted: **27/5/2025**

Copyright: Damascus University- Syria, The authors retain the copyright under a **CC BY- NC-SA**

Abstract

Ancient Egyptian sciences were closely linked to religion, making them inseparable from its sphere. Since their inception, they became part of religious teachings, even though they developed, but not at the pace that this profession experiences when liberated from constraints. The religious influence on medicine was profound, leading to its association with religious incantations. This research elucidates the categories of physicians, their training, their relationship with authority, the temple, and the military, as well as how healing was practiced and the significance of the papyri that have reached us, and the connection between embalming and physicians. It summarizes the medical reality in ancient Egypt, its religious and scientific foundations, and how the ruling authority interacted with them, along with the extent to which the poor benefited from their knowledge, culminating in clarifying the importance of magic and sorcery in contrast to medicine, which deprived it of essential scientific factors, giving it a spiritual hue and psychological support that brought people closer to the temple.

Keywords: ancient Egyptian physicians - Egyptian medicine - priest-physicians - sorcerer-physicians.

المقدمة:

عمل المصـــريون القدماء على الاهتمام بالعلوم بمختلف أنواعها ومنها علم الطب الذي لا بد لأي حضـــارة منه لتتمكن من الاسـتمرار وتجاوز الأوبئة ومعالجة الأمراض، ونظرًا لأن الحضـارة المصـرية القديمة غنية بالمعارف الطبية الشـفهية وهي الأكثر شـيوعًا آنذاك والمكتوبة منها على ورق البردي، إذ كانت معلومات الطبيب المصـــري جزء من التراث المصـــري المكتوب، ومهما حفظت الأسرار شفهيًّا فإن المصريون كتبوها ولكن عن طريق الكهنة وبسريّة تامة خوفاً من تناقلها بين العامة، ليصبح الأطباء ذوو مكانة مهمة في الدولة والمجتمع ويقدمون خدماتهم بطرائق شتى تعبر عن مكانتهم، ولكن الطب لم يكن علمًا مستقلًا عن الدين بل تداخل فيه فأفرز ذلك إشكالية بحثية نستعرضها في هذا البحث ونحاول الإجابة على سؤال جوهري فيها:

ما علاقة الطب كعلم بالدين وما التأثيرات التي أثرت على الطب وهل منعته من التطوّر أم أنها كانت مجرد كماليات روحية تقوي الحالة النفسية للمريض؟

أمّا أهداف البحث فتتلخص في الإجابة على السؤال الإشكالي وبيان العلاقة بين الدين والطب وتوضـيح فئات الأطباء وأعمالهم والتزاماتهم، وكذلك اخذ نماذج من البرديات الطبية التي كانت بمثابة الكتيبات الطبية التي تســـتعرض الجســـد والأمراض التي قد تصيبه وطرق العلاج.

منهج البحث: اعتمد البحث على المنهج التاريخي البحثي القائم على تفســـير النصـــوص التي أوردتها المصـــادر والمراجع الأكاديمية واستخلاص الحقائق التاريخية منها، وكذلك على المنهج التحليلي القائم على تحليل البيانات واستنباط النتائج منها.

أولاً: الكهنوت والطب:

قدّس المصريون الآلهة التي كانوا يعبدونها، وزعموا أن بعضاً منها لها حاجات إنسانية وتمتلك مفاتيح علمية، ووفقاً لحاجتهم لها منحوها احتراماً، فاعتقدوا مثلاً أن "إيزيس" و"سـخت" وكذلك "أمحوتب" آلهة للطب وفنونه(الشـطي،1997، 20)، بل جعلوا الإلهة "إيزيس" إلهة الطب الحقيقيـة، وربطوا صفاتها الجمالية بجذب الأرواح إليها، وعدّوا "نيت" إلهة التناسل التي تعنتني بالنساء الحوامل وترعاهن، حتى أنهم بنوا معبدًا باسـمها وجعلوه كمركز تعليمي للقابلات والممرضـات اللواتي يسـاعدن الحوامل على الولادة بيسـر ومساعدتهن خلال فترة الحمل، وعدوا "سخت" إلهة الجراحـة، وكذلك كان معبدها مركزاً لتعليم الجبر الذي كان مقتصراً على الكهنة الذين كانوا يداوون الناس في المعبد.

فضـلاً عن ذلك فقد شيّد المصـريون، أضـافة إلى المعابد التي كان يجري فيها الاهتمام بالأمور الصـحية، مستشفى باسم الإله "إمحوتب" وذلك ضـــمن معبد منفيس وكان يقصـــده المرضـــى ويمكثوا فيه ردحاً من الزمن حتى ينالوا علاجهم الكامل، وكشـــفت التنقيبات الأثرية عن وجود مكتبة في جوار المعبد عُدت من أشهر المكتشفات المثيرة لتاريخ مصر القديم إذ حافظت على محتوياتها حتى العصر الروماني، ومنها وصلتنا "بردية ورقة برلين الطبية"(جيار،1992، 20-21).

وتجدر الإشـــارة إلى ارتباط أطباء مصـــر جميعهم برابط ديني واحد تمثل بتبعيتهم للإله (تحوت) الذي كان يعمل على رعاية مهنتهم والإبداع في مجال الطب، وكان وفقًا للأســطورة هو طبيب عيني الإله حورس، وكان هناك مجموعة من التعاليم التي وجب اتباعها لمنح العاملين في المجال الطبي مهارة الشفاء فالإله تحوت كذلك إله العلم وهو المُبتكر للكتابة أيضاً (كمال،1964، 101).

لذلك فإن أول من عمل في الطب كوسيط بين الناس والإله كانوا الكهنة، وكان عملهم يقتصر على الدعاء للمريض والتودد والتوسل للإله ليشفه، واستخدموا مجموعة من العقاقير الكيميائية لتقديمها للمرضى، فقد تميزوا بالفطنة والذكاء وامتلكوا علم الطب

ولكنهم نسبوه للإله(Géographie , 1880, p 432,)، وهذا ما عالجه "يوليوس جيار" (جيار، 1992، 27)، إذ تحدث عن هذه الشريحة المهمة في المجتمع المصري، وذكر أن الكهنة الأطباء عملوا بدقة متناهية وباحترام لتلك المهنة، ووضعوا أسس لمن يريد الدخول في هذه المهنة ودربوا الكهنة لسنوات قبل أن يتولوا المهمات الطبية، ومنحوهم شهادات تبيّن أنهم قادرون على ممارسة مهنة الطب، فضلًا عن الإلمام بالمعرفة الدينية الكهنوتية اللازمة ومنها نزاهة النفس وطهارة القلب والإيمان بالإله وقدرته على الشفاء، ولم يكن الأطباء يقيمون بعيدًا عن المعابد وأحيانًا أقاموا عياداتهم داخل المعبد مستغلين تعلق المصري بالعبادة والأماكن الدينية وقصده لها عندما يلم به أي مرض على سبيل التبرك بها (سونيرون،1975، 157)، ولذلك فقد تمتع الأطباء بثقة المجتمع ونالوا مكانة مرموقة، وأعطاهم الملوك مميزات كثيرة منها الإعفاء من الضرائب على الممتلكات ودعونهم لحضور الحفلات الرسمية، حتى أن أحد الفراعنة وهو زوسير لُقّب باسم "سا" أي "الشافي الإلهي"(غليونجي، د.ت، 29).

ومن مميزات الأطباء المصريين القدماء حفاظهم على أسرار المهنة وعدم تعليمها عشوائيّاً لغير الأكفاء، وكانوا يختارون من أبنائهم الأكثر قدرة على التعلم والاستقامة والأمانة ويعلمونه المهنة (شوكت،1967، 19)، ويذكر "ديودور الصقلي" أن تناقل مهمة الطب وتعليمها خارج المدارس كان شفويًّا من الأب لأبنه إذ عُدّت سِرّاً من الأسرار(Diodore de Sicile, 1851 , 92.).

ووفقاً للكاتب "بول غليونجي" فإنه (من المحقق أن نشأة أولى مدارس الطب في مصر الفرعونية ترجع إلى عهد الأسرة الأولى)، إذ أُحدثت في أكثر الجهات عمرانًا وشهرة في مصر، ومنها طيبة ومنفيس وعين شمس وصالحجر، وعُلّم فيها مختلف أنواع العلوم الطبية، وكذلك الحساب والفلك والهندسة وعلوم اللاهوت (غليونجي، د.ت، 527)، وعمل الأطباء على اختيار التلاميذ الذين سيلقنونهم دروس الطب بعناية فائقة، ومن الصفات المطلوبة كانت الرأفة والحنان والفضيلة في التعامل مع الضعفاء، ويجب أن يكون الشاب بطبعه لا يحب الكلام كثيراً، ولديه صبر وثبات، وكان يمضي مدّة تدريبه وتعلمه في المعابد وخلف محاريبها وهياكلها، والغاية ألّا يخالط الأناس قدر المستطاع لكي لا تنتقل سلبيات المجتمع إلى نفسه، حتى أن من يرتكب إثماً من الطلاب يكون عقابه شديدًا ومُضاعفًا، فوفق وجهة نظر الأطباء أن المتمرن يجب أن يتحلى بالأمانة وهو يحمل أمانة الإله لينقلها إلى الناس ويحافظ على حياتهم، فأرواحهم ليست ألعوبة بيديه، وأن الاستقامة النفسية من أبرز عوامل هذه المهنة، وتكريماً لكل جهود التلاميذ خلال فترة التدريب فإنه عند تخرجهم تُقام لهم حفلات خاصة أمام الهيكل المقدس وينالون شهاداتهم بها بكل تقدير واحترام وبحضور الأساتذة وممثلين عن السلطة، ليؤدوا اليمين القانوني المتضمن كتم أسرار المهنة وعدم الحديث عنها، وبعدها يبدأ الطبيب الجديد بممارسة المهنة كتدريب عملي يجمع فيه بين الكهنوت والطب لبضعة سنوات قبل أن يصبح طبيباً فحسب.

لم يبقى الطب شفويّاً بل جُمعت نصوصه ووصفاته ووسائل العمل به (لادخارها في الأماكن تسهيلا لاقتباس المحتاجين منها في كل شيء حسب الطوارئ عندهم) وسمي الكتاب الذي جمعها بـ (الكتاب المقدس) (هنري،1996، 67)، وهو الكتاب المشهور لديهم سابقًا بكتاب أمبر (Ember)، الذي نُسب للإله تحوت، الذي شمل اختصاصه بالإضافة إلى الطب قوانين أساسية في الفن، ونسب الكتاب للإله هو تأكيد على قدسيته وأهميته إذ يمنع تبديل أو تغيير أي شيء فيه، فهو وحي إلهي وليس عملاً بشريّاً، لذلك نسبوا الأخطاء الطبية التي كانت تحدث بعدم تطبيق الطبيب لشروط الكتاب المقدس، وإن حل بالمريض أي خطر فجزاء الطبيب الإعدام أمام الناس إذا ثبت أنه المُسبب بالخطأ (جيار،1992، 13-17).

نجد مما سبق أن الطب في مصر القديمة ارتبط ارتباطاً وثيقاً بالمؤسسة الدينية المتمثلة بالمعابد التي بدورها ارتبطت بالسلطة الفرعونية، أي أن الطب كان ذو علاقة وطيدة بالفئة الحاكمة سواء الفرعونية أم الدينية، لذلك كان لا بد للطبيب من التقيّد بالأصول الدينية الموضوعة، ونيل رضى الفئات الحاكمة وتقديم الخدمات من خلالها وبعلمها، وتحت إشرافها، وهذه السيطرة لم تكن سلبية،

بل أســـهمت في نمو الطب والتطور فيه بفضـــل حاجة الفئات الحاكمة للعلاجات اللازمة لها بالدرجة الأولى، لذلك نال موضـــوع الاهتمام بالطبيب وتأهيله أهمية خاصة لديهم.

ثانياً: طبقات الأطباء في مصر:

1- **الأطباء الموظفون:**

كان للفئة الحاكمة أطباء خاصـــين بها، وكذلك للجيش، أمّا الملك فكان له طبيبه الخاص، وجميعهم يتقاضـــون المرتبات من خزينة الســـلطة، وكان الأطباء الموظفين يرافقون الجيش في تحركاته فســـموا الأطباء العســـكريين، وبعض الموظفين منهم ألحق بالمصـانع والورشـات الإنتاجية التابعة للسلطة الملكية، ومن الجدير ذكره أن هؤلاء الأطباء الموظفون لم يقتصـر عملهم على علاج الفئة الحاكمة، بل ساعدوا أفراد الشعب العاديين وتقاضوا منهم أجور مُرتفعة يُخصص جزء منها لصالح المعبد الذي تخرج فيه بهذه المهنة (غليونجي، د.ت، 530)، ويذكر "ديودور الصـقلي": (احتاط المصـريون للأمراض فعالجوا أجسـادهم بالمسـهلات والمطلقات والمقيآت وكان فيهم من يستعملها كل يـوم أو كل أربعة أيـام مـرة فالزائـد من الطـعام الـذي لم يهضم يضر ويمرض، فوجب نفيه قطعا لمسببات الداء واحتفاظا بالصحة الموجودة. ويعتني الأطبـاء في الحرب والأسفار بالناس مجانا وأجرهم على الجماعة ويعينون العلاج للمرضى على مقتضى وصـايا مكتوبة محررة ممن سبقهـم من أكابر الأطبـاء فـإذا لم يوفقوا بها إلى إنقاذ المريض نفضوا يدهم مـــن المسؤولية أما إذا عالجوا بغير الوصايا المذكورة وأخفقوا فتقام عليهم التهمة ويحكم على الطبيب بالموت، وحكم القاضي في ذلك أن آراء من تقدموا وسبقوا بالتجربة والمران الطويل خير من رأي واحد حديث عهد بالفن)(Diodore de Sicile, 1851 , 92).

2- **الأطباء المتخصصون:**

ويذكرهم "يوليوس جيار"(جيار،1992، 14) بأنهم الفئة التي تعمقت في القراءات الطبية نتيجة لامتلاكها الســجلات وتدوين كل جديد وفق القسم المُخصص له وهم من كهنة المعبد، فأصبحوا من الأطباء الكهنة المُتخصصين في جملة من الأمراض ونالوا رهبة وهيبة بين الناس لســـعة اطلاعهم، كذلك ذكرهم "هيرودوت" بأنهم من كبار العلماء في أواخر الدولة الحديثة أي القرن الخامس: (إذ كل طبيب يختص بداء واحد لا أكثر ، وكل البلدان عندهم غاصـة بالأطباء، لأن بعض الأطباء مختصـون بالعيون، وبعضـهم بالرؤوس، وبعضهم بالأسنان، وبعضهم بالأمعاء وبعضهم بالأمراض المجهولة)(هيرودوت، د.ت، 74).

3- الأطباء المساعدون:

دلت النقوش المصرية على وجود فئة من الأطباء كانت دون الفئتين الأولى والثانية سُميت بـــ "أوت" وهم أشبه بالممرضين المتخصـــصـــين في التدليك والأربطة الخاصـــة بالتحنيط (غليونجي، د.ت،532)، ومن ناحية أجور هؤلاء الأطباء فيذكر "ديودور)"(Diodore de Sicile, 1851 , 92).أن غالبيتهم كانوا يعالجون مجانًا، فيما يذكر "حسن كمال" مُستنتجًا أن سبب ذلك هو عدم وجود أطباء للشعب وفقط الأطباء هم من يتبع للسلطة ويتقاضى المرتبات منها، ويعدون من الحاشية الفرعونية من ناحية الســـكن والغذاء والمكافآت، أما الذين يتبعون للمعابد فينالون مرتباتهم من خزائن تلك المعابد(كمال،1964 ،100) التي كان لها ميزانية كبيرة لكثرة ما أوقف لأجلها من ممتلكات، وكان الطبيب المساعد باستطاعته علاج كل شرائح المجتمع ولا قيود على ذلك، أما "يوليوس جيار" فيقول : (أن المألوف في مصـــر القديمة يتلقى الطبيب أجرا عقب شـــفاء المريض بنســـبة حالته بين قومه ، ثم عدلوا عن هذه الطريقة وقرروا أن كل مريض من بدء توعكه يمتنع عن حلق شـعره أو قص أي شـيء منه حتى يتم شـفاؤه. وفي يوم النقاهة يحلق شعره ويزنه بالفضة أو الذهب ويسلم كل ذلك إلى المعابد التي كانت تؤدي للأطباء رواتب شهري) (جيار، 1992، 28).

ولم يكن الاستطباب يجري على يد الطبيب فقط إذ يمكن الاستنجاد بالساحر أو استشارة الكاهن خلال عملية العلاج، وذلك وفق حالة المريض، فهناك حالات نفسية وعقلية لا تحتاج لتدخل الطبيب ولا سيما الهلوسة والجنون، فالناس تلجأ فوراً إلى السحرة والكهنة، إذ يعتقدون أن السبب روحاني، أما في الحالات التي يظهر فيها المرض كأعراض ملموسة في الجسد فيذهبون للطبيب أو يستقدمونه، وهناك من يراعي العامل المادي فأيهم أرخص تكلفة للعلاج فيقصدونه بغض النظر عن الأعراض والحالة (كمال، 1964، 91).

وقد اهتم المصريون القدماء بالنظافة في كل شيء سواء كان خاص بأجسادهم أم بأماكن سكنهم أو بصحتهم ولا سيما مكافحتهم للحشرات المنزلية ويقول "هيرودوت": (كانوا يشربون في كؤوس برونزية يغسلونها يوميا. وإن هذا الاهتمام كان عاما فلم يكن قاصرا على طبقة واحدة، وكانوا شديدي العناية بلبس الكتان المغسول حديثا) (هيرودوت، د.ت، 47).

ولكن وفي العموم لم ينل الطبيب ما يحفزه على تطوير أساليب الطب وأدواته أو التفكير خارج الإطار الذي تعلمه إلا في حالات استثنائية وذلك يعود لوجود السحرة والكهنة ومنافستهم للأطباء، وجعل الناس الطبيب بمنزلة الساحر أو قد يتفوّق عليه الساحر بسبب المعتقدات الدينية الملائمة لتلك الحالة، حتى أن كثير من المرضى لم يتناولوا دوائهم إلا بعد أن يكون مصحوبًا بالتعاويذ السحرية، فكانوا يتصورون أن الشفاء من التعويذة وليس من الدواء نفسه(هنري، 1996، 67)، إذ اعتقدوا أن المرض هو روح شريرة خفية ناتجة عن عمل سحري أو عقاب إلهي، حتى أنهم نسبوا بعض الحالات أنها عدو لهم أو روح ميت حلت بهم، فذلك لن ينفعه الدواء العادي بل يجب تكثيف الجرعات من نباتات بعينها فتصبح الجرعة ذات مذاق رديء، وهذا باعتقادهم يسرع من طرد تلك الأرواح الشريرة منهم(Erman A – Ranke H, 1952 , 458).

خصص المصريون لموتاهم رسائل طويلة كتبوها على أوراق البردي، وكتبوا لهم كذلك رسائل قصيرة كتبوها على الأواني، وذلك نابع من إيمانهم باستمرارية الحياة بعد الموت وقدرة الأرواح أن تسبح في السماء مثلها مثل الشمس وتبقى على تواصل مع عالم الأحياء، ونتج عن ذلك الاعتقاد اعتقاد آخر وهو أن للموتى قدرات ونفوذ، وأنهم يستطيعون التأثير في الخير والشر على الأرض، فكانوا عندما ييأسوا من علاجهم على يد الأطباء والسحرة والكهنة يلتجؤون إلى الموتى طلبًا للعون منهم، أو طلباً لكف الشر عنهم، وبينت نقوش المملكة القديمة (3200 – 2100 ق م) أن اللعنات المكتوبة على مداخل القبول توضح تلك العقيدة فمن يهتك حرمة القبر تصيبه الشرور من الموتى ومن يصونه ويحافظ عليه وعلى قدسيته فإنه يُصان من الأذى وتحميه روح المتوفى والآلهة التي يعتقد بها(كمال، 1964، 538)

لجأ المصريون القدماء إلى السحر في مرضهم فقد كان له قوة وحضور في المجتمع وكان للسحر علوم منتظمة يُستند إليها فتسلط نفسيًا على عقول الناس وكان السحرة دومًا يشون للمرضى أن هناك مؤامرة من الأرواح الشريرة تستهدفهم، فأصبح السحرة مُسيطرين ومُسخرين لقوى الإنسان الذي يقصدهم للعلاج نتيجة الإيمان العميق بهم وامتلاكهم قدرة الإقناع (حسن، د.ت، 260)، ويستعمل الساحر كل طاقاته ليفيد نفسه والآخرين، وكان يتفاخر بامتلاكه الرقيات السحرية القديمة وينسخونها ويبيعونها لمن يريد، كذلك استخدموا العصا السحرية ومجموعة مُختارة من التماثيل الصغيرة التي تمثل على الأغلب الآلهة كتعاويذ علاجية أو لحماية الفرد وفق اعتقادهم(آولج،1999، 129)، ولأن مهنة السحر مُنتظمة ولها أسس قد بُنيت عليها فقد كان لها مدارس تعلمها، وسميت ببيوت العلم والحياة، وكانت برعاية الإله تحوت، الذي آمن المصريون به بأنه هو من ألف الطلاسم السحرية والكتب التي يستند إليها السحرة، وجعل الملوك تلك المدارس تحت إشرافهم واعتنوا بها عناية خاصة وكانت بالنسبة لهم مفخرة علمية، وأدرجوا الكتب

السحرية ضمن شريحة الكتب المُقدسة والعلوم الأولية كالطب والحكمة والبيان، وحفظوها في مكتبات المعابد والهياكل فضلًا عن المكتبات الملكية(جيار،1992 ،81).

نستنتج مما سبق أن الأطباء انتظموا في فئات وكان أكثرهم علمًا ومعرفة هم من يعملون في البلاط الملكي ولصالح المعبد ثم الجيش، وذلك يعبّر عن أهمية الطبقية حتى في العلم والعلاج في مصر القديمة، وقد كان بقية الشعب يحصلون على العلاج من الأطباء بثلاث طرق، إمّا دفع مبالغ كبيرة لأطباء المعبد المختصين لعلاجهم، أو يعتمدون على مساعدي الأطباء لعلاجهم بأسعار زهيدة وأحيانًا بالمجان، بسبب أخذ هؤلاء الأطباء لمرتبات من الدولة أو المعبد، أمّا الطريقة الثالثة فكانت التداوي لدى الكهنة أو السحرة الذين يدعون معرفتهم في علم الطب، وكانت الفئات الثلاث للأطباء مُعترف بهم وينالون القيمة اللازمة التي تشجع الآخرين على تعلم الطب، وهذا ما جعل مهنة الطب ترتبط بالمعبد كمكان أساسي تبدأ فيه رحلة الطبيب وتنهي فيه.

ثالثًا: طرائق العلاج التي استخدمها المصريون القدماء:

استخدم المصريون طرائق متعددة لعلاج المرضى ولكن الممارسات الدينية كان لها الدور الأبرز فكانت أولى الطرق السحر فكانت بالتعاويذ وباستخدام البخور وغيرها من المواد ذات التأثير النفسي (غليونجي، د.ت، 261). ومن طرق العلاج والوقاية من السحر فكان يعتقد المصريون أن ارتداء بعض أنواع الحلي له قيمة سحرية وتحفظه وتبعد عنه الشرور(شبابي، 2021م، 21)، وقد دل استخدام العقاقير في العلاج على تأثير العقائد الدينية في علم الطب، إذ كان الطب جزء من الدين وتركيب الأدوية يأتي من النصوص الدينية المُخصصة لذلك، حتى أن المكان الذي تُعد وتُركب فيه الأدوية هو معمل داخل المعبد ويسمى "اسيت" وهو مكان سري للغاية، ولا يمكن مزج الأدوية أو تركيبها من دون الخضوع إلى طقوس دينية صارمة(إبراهيم، 1966، 469)، ويذكر "بول غليونجي": (أن بعض الأرقام كانت تتميز بأهمية خاصة دون غيرها كأن تتناول الأدوية أربع أو سبع مرات في اليوم ... أو أن تخضع كميات العقاقير في الأدوية المركبة لنسب معينة لها خواص حسابية ... ومن مظاهر السرية التي كانت تحيط بوسائل العلاج أن كثيرا من العقاقير كان لها أسماء لا تعرفها إلا فئة من المختارين)(غليونجي، د.ت، 561) نجد أن العلاجات التي استخدمها المصريون كانت دقيقة ومبنية على أصول علمية تجريبية، لكنها كانت مُرتبطة بالممارسات الدينية مباشرةً، وهذا ما يضفي على طرائق العلاج صبغة مقدسة، ربما كانت عامل نفسي مهم في تسريع الشفاء من المرض ولا سيما ما يرافق عملية العلاج من قراءة التعاويذ وغموض أسماؤها وسرية تركيبتها.

رابعًا: البرديات الطبية:

اكتشف علماء الآثار ثمان برديات طبية وسُميت بالقراطيس وهي:

(بردية إيبرس، بردية هيرست، بردية برلين الطبي، بردية أدوين سميث، بردية لندن، بردية كاهون الطبي، بردية إرمان، بردية تشستربيتي).

ونتعرض باختصار لبرديتين منها:

1- بردية إيبرس:

وهو أطول القراطيس ويُذكر أنه المرجع الطبي الأساس للأمراض الباطنية وطرائق علاجها وقد وصل إلينا كاملاً ومن دون أي تشويه فيه، فقد عُثر عليه في الأقصر عام 1862، ولكن الأثري الألماني Ebers اشتراه، أما تاريخه فقد تبيّن أنه يعود إلى عام 1550ق. م على الأرجح(كمال، 1964 ،10)، ويبلغ طوله 20.23 مترًا، أمّا عرضه 30 سم، وفيه 108 أعمدة، وكل عامود فيه

من 20 وحتى 22 سطراً ويشمل ككل 877 وصفة طبية لمجموعة واسعة من الأمراض، و12 منها فقد علاجها التعاويذ (سارتون، 1976، 114).

أمّا محتويات هذه البردية فهي مرتبة على التسلسل التالي:

1- توسلات للآلهة (وهي كناية عن أدعية تقرأ قبل بدء العلاج الطبي لتقوية مفعوله).
2- الأمراض الباطنية وعلاجها.
3- وصفات لأمراض العيون.
4- وصفات لأمراض الجلد.
5- وصفات لأمراض الأطراف (مكاوي، د.ت، 109)
6- وصفات مختلفة (ولا سيما لأمراض الرأس، كأمراض اللسان والأنف والأذن).
7- أمراض النساء وعلاجها (والأمور الخاصة بحياة المرأة ولا سيما الحامل، والأطفال والطوارئ الصحية التي قد تعترضهم).
8- مؤلفان عن القلب والشرايين، ويقول "بول غليونجي": (وهما المؤلفان الوحيدان اللذان وصلا إلينا في علمي التشريح).
9- الأمراض الجراحية وعلاجها، وشمل هذا القسم طرائق علاج الأورام ولم يتطرق للجروح (غليونجي، د.ت، 526) ويذكر "حسن كمال"(كمال، 1964، 11) (أن كل وصفة تحوي عدة عقاقير، وأمام كل عقار مقداره، وفي آخر كل وصفة طريقة التداوي به)، كذلك تبيّن أن المواضيع التي تطرقت لها البردية هي بحوث طبية متعددة وقد نُسخت ورُتبت وفقاً لوصولها للكاتب وليس وفقًا لغرضها العلمي، فكانت الغاية من كتابتها جمع تلك البحوث والبيانات التي يحتاجها الطبيب ومحاولة كتابة كتاب طبي من خلالها (غليونجي، د.ت،526).

2- بردية أدوين سميث:

عُثر عليه عام 1862 في مقبرة الأقصر وعُد من أهم البرديات الطبية، وقد اشتراه (أدوين سميث) ولكن البردية لم تكن كاملة إذ أصاب التلف بعض أجزائها، مما أفقدها جزء من نصوصها، وحالياً يبلغ طولها 4.68 متراً ويعتقد العلماء أن طولها كان خمسة أمتار، وحافظت على عرضها وهو بين 32.5 – 33 سنتمترًا، وفيها 22 عموداً، ويُعتقد أن نصوصها كُتبت من عدّة أشخاص إذ هناك اختلاف واضح في الخط ورجح "حسن كمال"(كمال،1964، 11)، أن زمن البردية قد يعود إلى عصر الأهرام أو قبل ذلك، وشاع استخدامها لأجيال لاحقة وذكر "سارتون": (وفي نهاية الدولة القديمة في القرن السادس والعشرين ق. م فكر أحد العلماء الأطباء في تجديد هذه البردية بإضافة تعليقات (مجموعها 96) تشرح الاصطلاحات التي بطل استعمالها وتوضح المسائل الغامضة فيها. وهذه التعليقات تُكَون أهم قسم في البردية يلاحظ أن بردية إيبرس فيها أيضا بعض التعليقات – مجموعها 26 –لكنها مشوشه (سارتون،1976 ،115).

وجاء مضمون البردية على قسمين: الأول من 17 عمودًا تحوي على 377 سطراً وكُتبت على وجه البردية، وتتضمن 48 حالة مرضية قسم فيها جسد الإنسان من الأعلى إلى الأسفل (الرأس والجمجمة فالأنف والفك والوجه والأذن وفقرات الرقبة وفقرات الظهر والأضلاع والقفص الصدري والترقوة والكتف والمنكب واليدين حتى العمود الفقري)، ويتوقع أنها كانت تشمل بقية أعضاء الجسد لولا التلف الذي أصابها، أما قسمها الثاني فهو أربعة اعمدة ونصف فقط وضمت 92 سطراً ومن المرجح أنه كان يشمل كل أجزاء الجسم. أما القسم الثاني من البردية فهو عبارة عن أربعة أعمدة ونصف عمود تضم 92 سطرا كُتبت على ظهر البردية، وشملت طرائق كتابة التمائم (غليونجي، د.ت، 525) وقد قسمت مجموعات القسم الأول (المكتوب على الوجه) إلى:

1–الرأس وله (27 حالة) – الأولى منها غير مُكتملة: وجاء في البردية عن الرأس وصف للجمجمة وغشاؤها الرقيق، واحتوائها على الدماغ (الحالات من 1 إلى 10)، ثم ذكر الأنف (الحالات من 11إلى 14) ثم منطقة عظم الفك العلوي (الحالات من 15 إلى 17) كذلك منطقة العظام الصدغية (الحالات من 18 إلى 22) ثم الأذنان، فعظام الفك السفلي، فالشفتان، وأخيراً الذقن (الحالات 23 إلى 27) .

2– الحنجرة والرقبة (فقرات العنق) (الحالات28 – 33 .

3– الترقوة (الحالات 34 – 35) .

4– المنكب (الحالات 36 – 38) .

5– عظم القفص الصدري مع شرح لما يغطيه من غشاء رقيق، وكذلك الضلوع المستقيمة المُتصلة به (الحالات 39– 46).

6– الكتفان (الحالة47) .

7– العمود الفقري (الحالة48) .

وعند الحالة الثامنة والأربعين نجد أنها غير مُكتملة بسبب ضياع جزء من البردية على الأرجح(مكاوي، د.ت،109)

وأما ترتيب كتابة الحالات فكان كالتالي:

1– العنوان: ويبدأ وفق الحالة المرضية بـ : " تعليمات بشأن. " ...

2– فحص: " إذا فحصت رجلا به. " ...

3– تشخيص: " قل فيما يخصه. " ...

4– علاج: " ضع على الجرح ... " أو ما شابه ذلك، باستثناء الحالات التي لا علاج لها وتسمى الحالات المميتة أو الميؤوس، وعُبّر عنها بعبارات مثل " سأعالجه " أو " سأكافحه " أو " مرض لن أعالجه. "

5– تعليقات: وهي أشبه بمعجم صغير للكلمات الغامضة التي وردت في بعض الحالات المذكورة في البردية (أنيس، 1967، 68).

لقد تميزت طريقة عرض البردية بالدقة والانتظام وواقعية الملاحظات، ولم يُكتب فيها شيء من الشعوذة والسحر التي كُتبت بالبرديات الأخرى، ويعود السبب في ذلك إلى أنها تتناول الجروح الخارجية المعروفة وطرائق علاجها، ولا تعطي وصفات لعلاج الأمراض الخفية أو تلك التي يُعتقد أن أسبابها روحية أو إلهية (ولسن، 1955، 116).

يتبيّن مما سبق أن الطب المصري القديم خاض أشواطًا من التطور العلمي، ولكنه لم يستطع التحرر من السحر وفصله عن العلم، فهو بذلك يحتاج إلى فصل الدين عن الحياة الاجتماعية ومختلف أوجه النشاط البشري، لذلك بقيت الخرافات تسيطر على بعض مكامنه، ولا سيما الآلام غير مرئية السبب مثلاً آلام الرأس والقلب وغيرها، فالمصريون عرفوا التشريح وبواسطته عرفوا أعضاء الجسد من خلال تشريح جثث الموتى، واستفادوا من تجاربهم العملية، ولا سيما من ممارستهم المتكررة للتحنيط وما يتطلبه من دراية بالأعضاء الجسدية حتى أنهم عند تجويفهم الرأس علموا محتوياته لكنهم لم قربوا القلب لمكانته ورمزيته لديهم فكان العامل الديني مُعيق لهم وعجزوا عن إدراك الدورة الدموية ووظيفة الأعضاء في الجسد وآلية عملها ككل.

خامساً: التحنيط:

لف المصريون موتاهم في حصير أو جلد وعزلوهم في مناطق جافة فيها رمال معرضة دومًا لحرارة الشمس وذلك منذ عصور ما قبل التاريخ، وأرادوا من ذلك حفظ تلك الجثث المُحنطة من خلال امتصاص الرمال الساخنة للماء في الجسد والرطوبة التي تحدث في الرمال، واستخدموا في الدولة القديمة لفائف الكتان بعد أن أشبعوها بالراتنج، أمّا في عصر الدولة الوسطة فقد أبقوا على

استخدام الراتنج كمادة لاصقة لكنهم مزجوها بنشارة الخشب وحشو فيها فراغات الجسد، في حين عُثر على بلورات النطرون الممزوجة بالملح في بعض المومياءات، فكانوا بعد أن يفرغوا من إفراغ الجسد من الأمعاء الداخلية يملؤونه بالكتان، وفي عصر الدولة الحديثة بدأوا بإخلاء المخ من الجماجم، واستخدموا الراتنج بكثرة من اجل حفظ كيان الجسد بعد جفافه (إبراهيم،1966 ،475).

أمّا القائمين على العمل وهم أطباء كما أسلفنا فغنه لا يعمل وحده بل يختار رجال ثقة للعمل ويكونون من الكهنة ليأتمن على أسرار التحنيط ويعطيه صفة القدسية، أمّا أماكن التحنيط فكان كل منها له عدّة أقسام وهي:

القسم الأول: ويسمح لأي كان دخوله، وفيه تجهيزات صنعة التحنيط قبل أن تُركب. فقط .

القسم الثاني: وهو كناية عن قاعة مُخصصة لتدريس صنعة التحنيط، ولا يدخلها سوى الأستاذ والطلاب حين الدرس.

القسم الثالث: وتوضع فيه الجثث التي يجري تحنيطها(جيار، 1992، 119) ووفق "هيرودوت"(هيرودوت، د.ت، 47)، فإن هناك مختصون في التحنيط يعملون به كحرفة لهم، وكانت أسعار التحنيط متفاوتة وتظهر من نماذج الخشب التي تعرض على الزبون الذي يريد تحنيط متوفى يخصه، فالنماذج المثالية هل الأغلى، وكلما قلّت تقانة يقل تقل التكاليف وبالتالي تقل الجودة حتى تصبح أرخصها ذات نماذج توحي بأنت طالبها من الطبقة الفقيرة، ويمكن للزبون اختيار أي نموذج يريده بقدر قدرته على الدفع، وبعد تسليم الجثة يتولى المحنطون كل الأعمال المتعلقة بها؛ فإذا كان التحنيط ذو جودة عالية فأنهم يبدأون باستخراج المخ بواسطة أداة حديدية معقوفة يدخلونها من فتحة الأنف، وبعد تعريض الدماغ للخلل يصبون بالفتحة نفسها عقاقير تذوّب الدماغ لإخراجه كاملًا، ثم يشقون جانب الخصر بقطعة حجر أثيوبي مدببة، ويفصلون كل الأحشاء عن الجسد ويخرجونها للتنظيف والغسل باستخدام خمر البلح ثم يخلطونها بتركيبة توابل مجروشة، وبعد ذلك يضعون في الجوف الذي أصبح فارغاً مسحوق نقي ومر ويستعملون معه مختلف أنواع الطيب ذو الروائح العطرة، ولا يستخدمون البخور، ومن ثم يغلقون الجثة ويخيطونها، وتبدأ عملية التحنيط بنقعها سبعون يوماً بالنطرون، وقد حددوا هذا الوقت بدقة إذ لا يجوز أن ينقص أو يزيد عن ذلك يومًا واحدًا، وبعدها يخرجونها من النطرون ويغسلونها جيدًا ثم يلفونها بالكتان الرقيق، ويدهنونها بالراتنج، ويسلمونها لأصحابها الذين بدورهم يوصون النحاتين على صنع تمثال مجوف من الخشب على شكل إنسان لوضع الجثة فيه، وفي غرفة الدفن يسندونها إلى الحائط.

أما من يطلب تحنيط الجثث بأقل جودة من تلك الطريقة فيستخدم المحنطون زيت الصنوبر لملء جوف الجثة من دون إزالة الأحشاء منها ولا حتى شق الخاصرة، بل يدخلون الزيت من فتحة الشرج ثم يسدونها بإحكام لمنع خروجه، ثم ينقعونها سبعون يوماً بالنطرون وبعد استخراجها يزيلون السدة أسفل الشرج فينزل الزيت الذي يكون ومن قوته قد أذاب كل الأحشاء التي تنزل معه، وهنا لا بد من ذكر أن النطرون يذيب اللحم ولا يبقى من الجثة سوى الجلد والعظم، ثم تسلم إلى أصحابها (صادق، 2000، 68).

أما الفقراء فكانت طريقة التحنيط بملء جوف الجثة بماء الفجل ونقعها بالنطرون سبعون يومًا ثم يسلمونها لأهل المتوفى(هيرودوت، د.ت ، 76).

نجد مما سبق أن عملية التحنيط لم تكن بحاجة لأطباء مختصين، حتى أن هناك من احترفها ولم يحترف الطب، لأنها عمل شبه يومي في مصر، فهناك دومًا حالات وفاة وتحتاج لأعداد كبيرة من الأطباء، فربما كان أطباء المعبد هم من يعطون النصائح والتوجيهات للعاملين في التحنيط بينما لا ينشغلون إلّا بالموتى من الملوك أو رجال الدين الكبار.

الخاتمة:

كانت العلاقة بين الدين والطب علاقة تلازمية، ونُسب كل ما قام به الأطباء للآلهة، وكان فعليّاً نتاج تعليم ديني مدروس وفق أسس تجريبية، ويُضاف إليه كل المستجدات العلمية التي تحصل إذ تكتب في برديات أمّا تسلسلية ومُنظمة أو تجميعية وعشوائية، وقد تكون البردية الطبية مكتوبة من شخص واحد أو من عدّة أشخاص، أي أن الأسرار الطبية لم تكن حكراً على شريحة قليلة من كهنة المعبد، بل هناك توسيع في قادة العارفين بها، وتبيّن لنا أن الطب أعطى المعبد قوّة وانتشار لمعتقداته، فمن المعلوم تعدد الآلهة والمعابد وبكل منطقة كان هناك معبد ولا بد أن فيه أطباء ويدرس شيء من الطب، ولا سيما عندما يكون معبدًا رئيسيّاً، وبذلك كانت مسألة علاج الناس ترتبط بالعقيدة الدينية ارتباطاً مباشراً، وكذلك مسألة التحنيط بعد الموت، إذ لا بد لكل مصري أن تطأ قدمه المعبد لغاية طبية، وإن لم تكن هناك حاجة لعلم الطب فهناك قناعات للحاجة إلى السحر والتعاويذ الدينية لدى شريحة واسعة من السكان، وإجمالًا كان هناك تحكّم ديني بموضوع التطبيب منعه من التطور السريع، فالسيطرة والتعاليم الدينية الطبية لا تترك للعاملين فيها أبوابًا واسعة للتغيير، ولكننا نجزم بحدوث تطورات بطيئة ومتواصلة في مسألة الطب يدل عليها كتابة البرديات المتلاحقة، ومن الطبيعي أن يتطوّر هذا العلم ليواجه الأوبئة والأمراض الجديدة أو المتجددة، ولكنه بقي ضمن التطور المسموح به في السياق الديني، ولا بد من عدم نكران الأثر الديني على المريض كعلاج نفسي مُساعد من خلال إيمانه بقدرة الآلهة وأطباء الآلهة على علاجه.

هذا البحث ممول من جامعة دمشق وفق رقم التمويل (501100020595).

المراجع

1- أنيس، عبد العظيم، (عام 1967م)، العلم والحضارة: الحضارات القديمة واليونانية، دار الكتاب العربي.

2- إبراهيم، نجيب ميخائيل، (عام 1966م)، مصر والشرق الأدنى القديم، ج: الرابع، (الحضارة المصرية القديمة)، ط: الثانية، دار المعارف.

3- الشطي، أحمد شوكت، (1967م)، تاريخ الطب وآدابه وأعلامه، مطبعة طربين.

4- آولج، ايفان، (1999م)، السحر والسحرة عند الفراعنة، ترجمة فاطمة عبد الله محمود، مراجعة ماهر طه، الهيئة المصرية الهامة للكتاب.

5- جياري، وليوس، لويس ريتر، (1992م)، الطب والتحنيط في عهد الفراعنة، تر: أنطون زكي، مطبعة السعادة، مصر.

6- حسن، سليم، (د . ت)، تاريخ الحضارة المصرية: الديانة المصرية القديمة وأصولها، م: الأول، العصر الفرعوني، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.

7- سارتون، جورج، (عام 1976م)، تاريخ العلم القديم، ط 3، مصر، تر: مصطفى الأمير، دار المعارف بمصر.

8- سونيرون، سيرج، (عام 1975م)، كهان مصر القديمة، تر: زينب الكردي، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

9- شبابي، أحمد، (عام 2021م)، فن التزين والتجميل والحلي عند المرأة في مصر القديمة، ***مجلة جامعة دمشق للدراسات التاريخية***، المجلد 142(العدد2).

10- صادق، شكري، (عام 2000م)، تاريخ الفنون الجميلة عند قدماء المصريين، ط2، مكتبة مدبولي.

11- غليونجي، بول، (د.ت)، تاريخ الحضارة المصرية: الطب عن قدماء المصريين، المجلد الأول، العصر الفرعوني، مكتبة النهضة المصرية.

12- كمال، حسن، (عام 1964م)، الطب المصري القديم ، ج1، ط2، (د.م).

13- مكاوي، فوزي، (د. ت)، الناس في مصر القديمة ، المجلس الأعلى للآثار.

14- هنري، برستد، جيمس، (عام 1996م)، تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسي، تر: حسن كمال، مكتبة المدبولي، القاهرة.

15- هيرودوت، (د. ت) هيرودوت في مصر ، تر: وهيب كامل ، دار المعارف بمصر.

16- ولسن، جون، (عام 1955م)، الحضارة المصرية، تر: أحمد فخري، النهضة المصرية، القاهرة.

المراجع الأجنبية:

1- Strabon , Géographie , trad Amédée Tardieu , tome 3 , ed Librairie Hachetwe, paris, 1880, p 432.

2- Diodore de Sicile , Bibliothéque historique , trad M.Ferd Hoefer , ed Adolphe, Delahays , Paris 1851 ,p 92.

3- Erman A – Ranke H , Civilisation Egyptienne , ed Payot , Paris 1952 , p 458.